خاتَمة فى الأدَب والحضَارة

كنت مشغوفاً بقراءة الأدب العربى القديم وما أزال . ويرجع هذا الشغف إلى أيام كنت طالباً بالقسم الثانوى وحين كنت أتلقى الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية . وقد طالعت يومئذ الكثير من أمهات كتب هذا الأدب ، وحفظت عن ظهر قلب ما حبب إلى نفسى مدخله . فلما كنت فى السنة الأخيرة من دراسة الحقوق بدأت متأثراً بظروف ليس ها هنا موضع ذكرها أقرأ كتباً فى الأدب الإنجليزى وفى الفلسفة الإنجليزية ، ككتاب الأبطال لكارليل ، والحرية لجون ستوارت مل ، والعدل أحد أجزاء الفلسفة الاجتماعية من كتب سبنسر . إذ ذاك انفسح أمامى من عوامل التفكير ما لم تمهد إليه مطالعاتى العربية . وسافرت من بعد ذلك إلى باريس ، وجعلت أدرس اللغة الفرنسية ، وأتصل بأدبها ، فأخذ إليه من هواى كأشد ما تأخذ حسناء إليها هوى مغرم بها . فأمعنت فى قراءة هذا الأدب ، وجعلت أحضر من دروسه مثلما كنت أحضر من دروس الحقوق التى كانت مقصدى من سفرى لنيل إجازة الدكتوراه فيها . ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناى من جمال البيئة المحيطة بى إلى الإعجاب غاية الإعجاب بالحضارة الغربية التى تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية . ولعل أشد ما أعجبنى من هذا الأدب روح الثورة الذى يبدو فيه دائم الضرام ، وحيوية متوقدة لا تخبو نارها . وأنت تشعر بهذه الثورة الأدبية فى كل صور الأدب سواء . فالقصة والأقصوصة والرواية المسرحية وكتب الأدب والفلسفة ، تنم كلها عما تضطرم به أرواح كتابها من نشاط دائم لا يستقر ولا يهدأ . وهو

كذلك فى الكاتب الواحد ، وهو أشد من ذلك فى الجيل يعقب الجيل . فالشعر الكلاسيك لراسين غيره لكورنى ، وكلاهما من الذين بعثوا أدب اليونان .وشعر معاصرهما موليير فى مهازله ومآسيه ثورة عليهما لأنه ثورة على القديم ، بل طليعة الثورة على القديم . وأدب القرن الثامن عشر ثورة على أدب القرن السابع عشر . والقرن التاسع عشر ينسج فى أدبه كما ينسج فى علمه وفلسفته على طرائق هى الثورة على القرنين اللذين سبقاه جميعاً . وفى كل قرن تتطاحن فى الأدب مذاهب وتقتتل آراء ، وتقوم بين الأدب والعلم ، وبين الأدب والفن ، وبين الأدب والفلسفة ، ثورات لا يهدأ أوارها . وهذا النشاط المتصل ، وهذه الثورة الدائمة الضرام ، هما خير ما يقنعك بأن الحياة فكرة قبل أن تكون عملا ، فكرة تسبق العمل وتوجهه سبيله . والحياة فى هذه الصورة هى الحضارة الحية القوية التى استلهمت الفن والعلم والأدب وألهمتها ، فكانت حضارة العلم والفن والأدب . وكان الأدب من العلم والفن هو الصدى الناطق للحالات النفسية التى يعبر عنها الفن ، وهو الفن البديع الاتساق الذى يكسو بآياته قواعد العلم روعة وجمالا .

ومن أشد ما يلفت النظر فى هذا الأدب الفرنسى وما يشترك معه فيه أدب الغرب كله ، دوام الصلة بينه وبين الدين من ناحية ، وبينه وبين العلم من ناحية أخرى . فقلَّ أن تجد كاتباً من كبار الكتاب لم يعرض فى واحد أو أكثر من كتبه لمسألة العقيدة أو للمسيحية ، سواء عرض لهذه أو تلك بما يملأ قلبه من جلال الإيمان ، أو من الثورة على العقيدة أو الدين . فالفردوس المفقود لملتن فى الأدب الإنكليزى ، والجحيم لدانت فى الأدب الإيطالى ، وكتب روسو وفولتير فى الأدب الفرنسى ، هذه وغيرها كلها آثار خالدة فى الأدب الدينى وفى الأدب المناهض للعقيدة وللدين . وهذه

الكتب كلها ، سواء منها الدينى والمناهض للدين ، تطبعها روح الثورة التى أشرنا إليها . وليس فى ذلك من عجب ؛ فقد كان البعث الأوربى فى القرن السادس عشر ثورة من طائفة من رجال الدين على رجال الكنيسة الكاثوليكية . ولوثر وكالفن وكوسوث هم أقطاب هذه الثورة . ثم كانت من بعد ذلك ثورة على هؤلاء ، ومحاولات عنيفة لتقويض عمد الكنيسة كلها . وإنما كان ذلك لأن الحضارة الغربية كانت إلى ما قبل البعث وإلى ما بعده بزمن غير قليل خاضعة أسوأ الخضوع لسلطان الكنيسة الدينى والزمنى . فلما بدأت حركة البعث بدأت متمردة من جانب رجال الدين على زملائهم ؛ لأن العقل والعلم والحكم وكل المظاهر الإنسانية كانت محصورة أو تكاد فى رجال الدين ، وكان واجباً على من سواهم أن يخضع لهم أو يطرد من الكنيسة ، ويكون جزاؤه التعذيب والنكال أشد النكال . فلما بدأت حرية الفكر تأخذ حظها من الحياة بنشر ديكارت كتابه « عن الطريقة » ، وأصبح للناس جميعاً أن يناقشوا الكنيسة ، وخطا العلم خطواته القوية ، كان النزاع على أشده ، حتى كان إنكار سلطان الكنيسة بعض ما نادت به الثورة الفرنسية ، وحتى تم الفصل بين الكنيسة والدولة فى فرنسا فى أوائل هذا القرن المتم العشرين . فلا عجب إذن أن يتأثر الأدب وهو مرآة الحضارة بهذا النضال كله ، وأن يكون تصوير حرية الفكر على أنها خصومة الكنيسة بعض ما يعبر عن حقيقة واقعة فى هذا النضال العنيف الذى قام فى الغرب ، والذى عاد اليوم يضطرب فى مختلف الدول خيفة أن يتم الصلح بين الكنيسة والدولة .

كان هذا الخوف بعيداً عن الأذهان فى عهد الأدب الكبير الذى أشرنا فى تقديم هذا الكتاب إليه . لذلك لم يفطن كثيرون من المصريين ومن الشرقيين الذين أتموا دراساتهم فى أوربا إلى الأسباب التى أدت بالأدب

الغربى إلى أن يطبعه هذا النضال بين الكنيسة والدولة ، وبين الحضارة الدينية والحضارة المدنية ، مما أدى بأوجست كومت إلى أن يقرر قانونه عن الحالات الإنسانية الثلاث – التيولوجية (اللاهوتية) والمتافيزيقية (التجريدية) والوضعية أو الواقعية – على أنها الحالات التى يمر بها عقل الجماعات البشرية ، وكأنها لا يمكن أن تتجاور أو تتصل . وأدى عدم نجاح دين الطبيعة ودين الإنسانية وما إليهما من مثلهما ، مما وضع روسو وكومت ، ببرجسن ومدرسته إلى وضع فلسفة « البرجماتيسم » أو الإلهام . وبهذه المذاهب تأثر الأدب الغربى تأثراً له علته ؛ لأن الأدب فى اتصاله بالحياة يتصل بالحياة الروحية والعقلية كما يتصل بالطبيعة والحياة المادية . والمصريون والشرقيون الذين لم يفطنوا بما يجب من الدقة إلى هذا الاتصال التاريخى بين الدين والعلم والفلسفة والأدب فى الغرب ، والذين فتنوا بأدب الغرب ، هؤلاء وأولئك خيل إليهم أنهم قديرون على نقل صور الأدب إلى الشرق كما هى . فخيل إليهم أن فى الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ما انتهى إليه النضال بين الدولة والكنيسة فى الغرب يجب أن يبدءوا عنده حملتهم على هذه الكنيسة الموهومة فى الشرق . وخيل إليهم أنه يجب الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث فى فرنسا . وأعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسى فى أوقات متفاوتة . لكنى إذ فكرت وفكرت ، رأيت تاريخ الحضارة فى الشرق غير تاريخها فى الغرب ، ورأيت الحضارة الإسلامية لا تعرف شيئاً اسمه الكنيسة ؛ لأن الإسلام لا يقر الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين ، وإنما يقرر : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولست أدرى : أفطن الغرب إلى ما لمركزه السياسى فى الشرق من مصلحة فى قيام هذه الحركة الجديدة التى سماها بعض كبار أساتذة الجامعات الأوربية « تغريب الشرق » ؟ أم قد خيل إليه أن حياة الشرق كحياة الغرب ،

وأن رسالة الغرب التى ألقتها الحضارة على عاتقه إنما تكون بهذا « التغريب » ، للشرق حتى ينسى تاريخه وينكر ماضيه .

ولا أحسبنى أمل القارئ إذا أنا كررت فى هذه الخاتمة ما قدمت فى فصول الأدب القومى وفى أكثر فصول هذا الكتاب من أن بعث حضارة الشرق يجب أن يكون بإحيائها من سبيل بحثها على الطرائق الحديثة ، لا بالتكديس على أكفانها من صفائح الغرب المستعارة ما يزيد فى جمودها وتكلسها تكلساً يحاول أبناؤها إزالته عنها . وهذا الإحياء إنما يكون بتعاون العلم والأدب : العلم الذى ينقب ويمحص ويجلو الغامض ، والأدب الذى يلقى الضياء الشفاف على ما يكشف العلم عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ العذب والأسلوب الممتلئ بذاتية صاحبه وبحياته . سنكون مدينين فى هذا الإحياء لطرائق العلم الغربية الحديثة ، ويجب علينا لذلك أن نقر لهذه الطرائق بالفضل . لكننى أحسبنى لا أغلو إذ أنا ذكرت أنا إذا اقتحمنا هذه السبيل فسنجد فى علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق الغرب العلمية الحديثة وقد تتفق على الأقل معها . وقد اتفق لى أن كنت أطالع فى كتاب بالإنجليزية عن تاريخ الكيمياء ، فكانت دهشتى عظيمة وأنا أقرأ فى تاريخ الكيمياء عند العرب حين عثرت على نصوص عربية منقولة ترجمتها تتحدث بنفس اللغة التى يتحدث بها العلم الحديث عن طرائقه . فالملاحظة والتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين من ذلك كله ، كان مما آمن به العرب فى علمهم إيمان الغرب به فى علمه . وأذكر أن هذه النصوص العربية ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى ، على حين لم تصبح موضع إيمان الغرب إلا فى القرون الأخيرة . على أنه يجب علىَّ أن أعترف بأن ما وقفت عليه من قراءاتى العربية لم يهدنى إلى هذا الفصل الدقيق بين العلم والدين على ما أراد مؤلفو الغرب من أنصار المذهب

الواقعى « البوزيتيفزم » . ومع ما يجد الإنسان فى مذاهب الفلسفة العربية من التشكك واللا أدرية والإلحاد فإنه ، فى حدود ما قرأت ، لا يجد هذا التفريق الصريح بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن معرفته (The Knowable and the Unknowable) مما قدم به هربرت سبنسر لفلسفته التوفيقية . أفيرجع ذلك إلى ما فرق تاريخ المسيحية بين الكنيسة والعلم تفريقاً وقف العلم موقف الخصومة من الدين ، على حين لم يكن من ذلك شىء فى تاريخ الحضارة الإسلامية ؟ قد يكون هذا . فقد رأينا من خلفاء محمد عليه السلام من يجعل المناقشة فى القرآن : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ موضع رعايته وعطفه . وقد رأينا المذاهب الإسلامية يقوم بعضها فى أثر بعض بأئمتها وكبار الفقهاء فيها ، ويختلف بعضها مع بعض ، بل يختلف التلاميذ مع الأئمة ، كاختلاف أبى يوسف ومحمد مع أبى حنيفة ، ومع ذلك لم يقل أحد بسلطان مطلق للخليفة فى شلح المسلمين وطردهم من الكنيسة . صحيح أن صوراً مختلفة من النضال الدينى كانت تقوم ، وعنها كانت تنشأ انقلابات سياسية جليلة الخطر ، وبسببها تطورت الحضارة الإسلامية مما كانت أول خروجها من بلاد العرب إلى ما صارت إليه بعد اتصالها بالفرس والمصريين والأندلس وغيرهم ، لكنها ونظمها وحركاتها سلكت سبيلا تختلف اختلافاً جوهرياً عما سلكت المسيحية وكنائسها .

إذا أردنا إحياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والأدب ، فلا مفر لنا من إحياء هذه التطورات وتاريخها ، من شق الطريق فى غيابات الماضى الخفى اليوم على أكثرنا ، بل علينا جميعاً ، لنعيد بذلك بعث هذا الماضى والروح الذى كان يحركه ، فنعيد كذلك بعث روحنا نحن ، روحنا القومى فى مصر ، وروحنا المصرى فى اتصاله بفلسطين وسورية والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التى اتصلنا بها

وخضعت وإيانا فى أية حقبة من حقب التاريخ لمصير مشترك ، لتكن الحضارة التى تقوم على أساس هذا الإحياء حضارة إسلامية كما أعتقد ، أو حضارة عربية كما يريد البعض ، أو حضارة شرقية متصلة بحضارة فارس والهنـد ؛ كل ذلك قليل الأثر عند من يريد إحياء هذه الحضارة العظيمة ، ولا يريد التلاعب بالألفاظ لغايات سياسية أو غير سياسية .

ولا مفر للأدب العربى من أن يسهم بنصيب عظيم فى هذا الإحياء ، ولا مفر له من أن يوجه ؛ فكثيراً ما يسبق الأدب العلم فى بعث الحضارات . وقد لا يخطئ كثيراً من يقول إن الأدب كان دائماً أسبق من العلم فى هذه السبيل . فالحضارة لم تكن يوماً ما مذهباً منطقيًّا يقيمه العقل وحده ، وإنما هىَ مجموع مطامح الحياة إلى المثل الأعلى الذى ترجو الجماعة بلوغه ، وهى إلى جانب ذلك تصور الجماعة الإنسانية لصلتها بالوجود فى مجموعه صلة تنتسب للماضى وتنفذ إلى أعماق المستقبل . والمثل الأعلى ومطامح الحياة نحوه وصلة الجماعة بالوجود ، هذه كلها تمتزج بها ولا تنفصل عن وحدتها عناصر من الإيمان والعقيدة ومن الحياة النفسية المتأثرة بوراثة الماضى وبمختلف عناصر الوجود مما يدخل بعضه فيما سماه سبنسر « مالا يمكن معرفته » ، وما يدخل بعضه الآخر فى دائرة الإلهام العريق النسب بالأدب والمحتاج إلى زمن لا يعرف أحد مداه ليكون أوثق بالعلم نسباً . وإن أنت أردت فارجع فى تحقيق ذلك إلى مختلف الحضارات التى تعرف : ارجع إلى الحضارة اليونانية ، وإلى الحضارة الإسلامية ، وإلى الحضارة الغربية الحديثة ، تجد الأدب دائماً سباقاً إلى اقتحام الميادين التى هيأت لهذه الحضارات بروزها ، وإلى شق السبل التى يسرت بلوغ الحضارات هذه الميادين . وقد ظل ذلك شأن الأدب فى صلته بتلك الحضارات أجيالاً متعاقبة حتى جاء العلم بخطاه البطيئة الأكيدة يستصفى من هذه السبل ومن

هذه الميادين خلاصة القوانين العامة التى توجه الإنسانية وتوجه الحياة . وإذا كان العلم قد نفى فى كثير من الأحايين ما أثبت الأدب ، فقد ظل ما نفى العلم من آثار الأدب متوقداً ملتهباً يصهر فى بوتقة العلم حتى أطفأ العلم شعلته . فإذا قيل بعد ذلك أن هذا الأدب قد قضى العلم عليه فهو إنما قضى عليه بعد أن أدى للعلم وللحضارة مدى أجيال متعاقبة رسالة الأدب . وهو من بعد إنما يخضع فى ذلك من قوانين الحياة لما يخضع له العلم نفسه ، فكثيراً ما أثبت العلم فى عصر من العصور قواعد وقوانين ثم جاء العلم فى عصر آخر فحطم هذه القواعد وزيف هذه القوانين .

ليقتحم أدبنا إذن ماضينا . وليقتحم هذا الماضى بأدوات البحث الأدبى وبأساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حرًّا طليقاً غير هياب ولا متردد . وليقتحمها بروح الثورة التى اقتحم بها الأدب الغربى تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما ، وبروح الثورة التى اقتحم بها الأدب العربى تراث فارس ومصر واليونان . وليقلب فى هذا الماضى ما شاء له التقليب والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده ، الحق فى أسمى صوره التى تلتمس الإنسانية على الأجيال فتكاد تلمسه أحياناً حين يكشف عنه أنبياء الإنسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح . والحق الصحيح ، الحق الذى تقوم الحضارات على أساسه والذى يدعمه الأدب على أسنة أقلام كبار الموهوبين من الكتاب ، هو الحق فى صلة الإنسان بالوجود كله : بهذه الأفلاك التى نرى ، وبهذه السماوات التى تغمرها ، وبالروح الفياض بالضياء ، والذى يحيط بذلك كله ويبعث إليه الحياة والنور ، هذا الروح الذى لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه . وصلة الإنسان بالوجود وبهذا الروح الذى ينتظم الوجود

جميعاً ، هى الحقيقة العليا التى يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب ، وأن تكون رسالة كل أدب يطمع فى أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للإنسانية المجد والسعادة .

الأدب الذى يسمو بالنفس إلى هذه المعانى العليا ، والذى يرتفع بها لتتصل بالوجود كله ، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة ، حقيقة هذا الروح العظيم الذى تعنو له الحياة والذى تستمد منه كل حقيقة وجودها . هذا الأدب هو الذى يقيم الحضارات السليمة الصحيحة . وإحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه فى ماضينا : فى هذا الأمس العظيم الذى يفاخر به الشرق القديم تاريخ الإنسانية جميعاً ، والذى يدعونا إلى أن نقيم عليه حضارة الشرق الجديد .

أترى آن الوقت الذى يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد ؟ بذلك أناديه ، فهل بلغت النداء ؟ : . .